

التحرير والتنوير

والمعنى في هذه الآية : وما يجوز أن يتخذ الرحمان ولدا . بناء على أن المستحيل لو طلب حصوله لما تأتى لأنه مستحيل لا تتعلق به القدرة لا لأن \square عاجز عنه . ونحو قوله (قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء) يفيد معنى : لا يستقيم لنا أو لا يخول لنا أن نتخذ أولياء غيرك ونحو قوله (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر) يفيد معنى لا تستطيع . ونحو (وما علمناه الشعر وما ينبغي له) يفيد معنى : أنه لا يليق به . ونحو (وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي) يفيد معنى : لا يستجاب طلبه لطالبه إن طلبه وفرق بين قولك : ينبغي لك أن لا تفعل هذا وبين لا ينبغي لك أن تفعل كذا أي ما يجوز لجلال \square أن يتخذ ولدا لأن جميع الموجودات غير ذاته تعالى يجب أن تكون مستوية في المخلوقية له والعبودية له . وذلك ينافي النبوة لأن نبوة الإله جزء من الإلهية وهو أحد الوجهين في تفسير قوله تعالى (قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين) أي لو كان له ولد لعبدته قبلكم .

بكذا باء : مثل والاعتراف الإقرار وهو المجازي الإتيان : (عبدا الرحمان آتي) ومعنى A E أصله رجع واستعمل بمعنى اعترف .

و (عبدا) حال أي معترف \square بالإلهية غير مستقل عنه في شيء في حال كونه عبدا . ويجوز جعل (آتي الرحمان) بمعنى صائر إليه بعد الموت ويكون المعنى أنه يحيا عبدا ويحشر عبدا بحيث لا تشوبه نسبة النبوة في الدنيا ولا في الآخرة . وتكرير اسم (الرحمان) في هذه الآية أربع مرات إيماء إلى أن وصف الرحمان الثابت \square . والذي لا ينكر المشركون ثبوت حقيقته \square وإن أنكروا لفظه . ينافي ادعاء الولد له لأن الرحمان وصف يدل على عموم الرحمة وتكثرها . ومعنى ذلك شاملة لكل موجود مفتقر إلى رحمة \square تعالى . ولا يتقوم ذلك إلا بتحقيق العبودية فيه . لأنه لو كان بعض الموجودات ابنا \square تعالى لاستغنى عن رحمته لأنه يكون بالنبوة مساويا له في الإلهية المقتضية الغني المطلق . ولأن اتخاذ الابن يتطلب به متخذه بر الابن به ورحمته له وذلك ينافي كون \square مفيض كل رحمة . فذكر هذا الوصف عند قوله (وقالوا اتخذ الرحمان ولدا) وقوله (أن دعوا للرحمن ولدا) تسجيل لغباوتهم .

وذكره عند قوله (وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا) إيماء إلى دليل عدم لياقة اتخاذ الابن با \square .

وذكره عند قوله (إلا آتى الرحمان عبدا) استدلال على احتياج جميع الموجودات إليه

وإقرارها له بملكه إياها .

وجملة (لقد أحصاهم) عطف على جملة (لقد جئتم شيئاً إدا) مستأنفة ابتدائية لتهديد القائلين هذه المقالة . فضمائر الجمع عائدة إلى ما عاد إليه ضمير (وقالوا اتخذ الرحمان ولدا) وما بعده . وليس عائداً على (من في السماوات والأرض) أي لقد علم كل من قال ذلك وعدهم فلا ينفلت أحد منهم من عقابه .

ومعنى (وكلهم آتية يوم القيامة فردا) إبطال ما لأجله قالوا اتخذوا ولداً لنهم زعموا ذلك موجب عبادتهم الملائكة والجن ليكونوا شفعاءهم عند الله فأياسهم الله من ذلك بأن كل واحد يأتي يوم القيامة مفرداً لا نصير له كما في قوله في الآية السالفة (ويأتينا فردا) . في ذلك تعويض بأنهم آتون لما يكرهون من العذاب والإهانة إتيان الأعزل إلى من يتمكن من الانتقام .

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا [96]) يقتضي اتصال الآيات بعضها ببعض في المعاني أن هذه الآية وصف لحال المؤمنين يوم القيامة بضعف حال المشركين فيكون حال إتيانهم غير حال انفراد بل حال تأنس بعضهم ببعض .

ولما ختمت الآية قبلها بأن المشركين آتون يوم القيامة مفردين . وكان ذلك مشعراً بأنهم آتون إلى ما من شأنه أن يتمنى المورط فيه من يدفع عنه وينصره وإشعار ذلك بأنهم مغضوب عليهم أعقب ذلك بذكر حال المؤمنين الصالحين وأنهم على العكس من حال المشركين وأنهم يكونون يومئذ بمقام المودة والتبجيل . فالمعنى : سيجعل لهم الرحمان أوداء من الملائكة كما قال تعالى (نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة) ويجعل بين أنفسهم مودة كما قال تعالى (ونزعنا ما في صدورهم من غل)